بعد الاستئذان :

اســـتنجلينا !

للأستاذ عزيز احمد فهمى

— مسكين أخى أصيب بحب ابنة الجيران فهو لا يأكل ولا ينام ، وقد حاولت كثيراً أن أجعله يفهم الحب لغواً وطيشاً وخيالاً ، ولكنى فشلت ، وظل يقول إنه يشعر بوجع صحيح فى قلبه وإنه لن يبرأ منه حتى ينال ابنة الجيران وهو ما يزال عند أبيه فى البيت بين العيال

— عندى دواء أخيك !

— والنبى ؟

— لا أقسم بفائدته لأنى لم أجربه ولكنى أكاد أومن بأنه نافع ...

— نجربه نحن ... ما هو ؟

— خذى مسماراً ، وضعيه فى النار حتى يحمر ، ثم انخسى به صدر أخيك فوق قلبه ...

— نخستك النار فى أحشائك ... تريد أن تقتل الولد ؟ !

— ما كان الكى قاتلاً يوماً . العرب وأهل الصعيد جميعاً يعالجون أدواءهم به ، وانظرى إليهم تريهم أشد العالمين صحة ، وأقواهم أبداناً وأرواحاً ...

— ولكنهم يكوون أبدانهم عند ما يصيب المرض أبدانهم ، لا عند ما تبرح بهم العواطف ، ولا عند ما تصيبهن الهموم . كان فيهم من جن بحب ليلى ، قيس ، لم ينخسوه بمسمار ولم يطعموه الحر

— صحيح أنهم قعدوا عن علاج قيس وأمثاله ، وقد أقعدهم عنه وقوفهم بعلمهم عند حد رضوا به هم ، ولكن هذا لا يجيزنا على أن نقف نحن أيضاً عند هذا الحد الذى ارتضوه من العلم فلنا أن نمضى فيه ما دام طريقه مفتوحاً ... لقد أخذ العالم صناعة الورق عن الفراعنة ، فهل وقف العالم فى صناعة الورق عند ورق الفراعنة ، وأبى أن يمضى فيها لأن أهلها الذين أوجدوها قعدوا بها عند حد ؟ !

— طيب ! فإلى أين تريد أن تمضى أنت بخزعبلاتك هذى ؟

— لا أعلم . ولكن لك أن تسألى من أين أريد أن أبدأ ... فهذا وحده ما أستطيع أن أجيبك عنه !

— ابدأ أينما تبدأ ، ولكنى أرجوك أن تنتهى إلى شىء يقره العقل ...

— وما العقل ؟ أظنه يحسن بنا أن نتفق عليه ، وعما يصلح لأن يكون موضع إقراره ، حتى إذا ما وقفنا عند رأى لم نختلف عليه ؛ فتقولين: إنه غير معقول ؛ وأقول أنا : إنه معقول ؟ !

— ولكن هذه حكاية جديدة ، بل هى حكاية قديمة جداً فيما أظن ... ألم تعرف إلى الآن العقل ما هو ؟

— ومن عرف !

— الناس جميعاً... اللهم إلا أولئك الذين لا يزالون يسألون عنه

وداعبتْ أنفاسُهُ خصلةً ... من شَعْرِها قامت لإغرائه
فأعرضتْ فى خَفَرٍ حيثُ لمْ ... تقوَ على منظـــرِ إفلاتِه
وأشرقتْ فى ثَغرِها بَسْمةٌ ... كالفجرِ فى مطلعِ أضوائه
ورنَّ فى أعطافِه صوتُها ... كالماء يجرى فوق حَصْبائه
«مالِكُ ! ما رُوحى سِوَى مِعْزَف ... بين يَدَىْ باعثِ أصْدائه
لا أحَدٌ ـ حاشاكَ ـ أعْنُو له ... إلا الذى يُدْعَى لأسمائه
دُونك قلبى خالصًا .. فهْوَ إنْ ... يَبْـذُلْ فمِنْ كل سُوَيْدائه
لا خيْرَ لى بَعْدكَ فى لُؤلُؤ ... إنْ لم تفزْ أنتَ بلألائه
إنْ تَرَ دمْعى سائلا فهْوَ لا ... يُنْبِئُ إلا عن هوًى تائه
رَضِيتُ ما تشعُّهُ فى الدُّجَى ... يا كوْكباً فى أوْجِ إسْرَائه »

* * *

ثمَّ أدارَتْ مَبْسِماً ضاحِكاً ... كالوَرْدِ فى أوّل إفضائه
يفترُّ لِلقُبْـــلةِ فى وجْهِه ... فَضمَّها شوْقاً لِأحشائه

(البحرين) ابراهيم العريض

— كان يخيّل إليّ أن هؤلاء الذين يسألون عنه هم الذين عرفوه مرة أو مرات ويريدون أن يعرفوه دائماً ...

— ما هذا الكلام ؟ الشيء إذا عرف مرة عرف دائماً

— إلا العقل ... فهو حين يعرف العقل يكون عارفاً ومعروفاً في الوقت نفسه ، وهذا يستلزم أن ينشق العقل على نفسه ، أو أن يتداخل في نفسه ، أو أن ينتفض عن نفسه لحظة ، ثم يعود إلى نفسه ، فإذا عاد إلى نفسه عاد عقلاً هو الذي كان قبل أن تحدث له حادثة المعرفة هذه ، ولم يكن هو قبل هذه الحادثة يعرف شيئاً عن نفسه ...

— هذا فرض يحتاج إلى إثبات

— إذن ، أثبتيه أنت

— وأنا مالي ؟ هل أنا الذي فرضته ؟ ...

— ولكن ، ألا تريته معقولاً ؟

— ومن كلام المجانين ما هو معقول

— فليسوا مجانين ، أو هم ساعة ما يقولون الكلام المعقول لا يكونون مجانين ... وما داموا يكونون مجانين أحياناً ، وغير مجانين أحياناً فهم إذن كبقية الناس ، فما من إنسان إلا ويحيد عن العقل وحكمه في كثير ... فإما أن يكون الناس على هذا مجانين جميعاً ، وإما أن يكونوا عقلاء جميعاً ، وإما أن يكونوا جميعاً في حالة ثالثة يصيبون فيها الحكمة حيناً ويخطئونها حيناً ، وهذا ما قدمته لك من أن العقل شيء إذا اهتدى إليه مرة لم يكن معنى ذلك أنه قد ربط وأنه لن يشرد ويتيه في وديان النسيان

— وقد قبلت أنا هذا الرأي ، وسأدعك تقول ما تشاء على أساس أنه لا عقل ولا جنون

— وأنا لا أرضى بهذا ، فالعقل شيء موجود بلا ريب ، وكل رأي لا يوافق العقل لن يكون إلا خبلاً ، وأنا لا أحب ابنة الجيران مثل أخيك حتى أسمح لنفسي أن أساير فيما تريدين أن تسترسلي فيه من الحديث وأنت مترنحة الفكر ...

— فماذا تريد مني أن أصنع ؟

— أريد منك شيئاً لا بد أن أطلبه من نفسي كذلك حتى نكون نحن الاثنين عاقلين فنستطيع أن نتفاهم . خذي هذا الخيط وهذه الإبرة وهذا الثوب وخيطيه ، وأما أنا فسأرسم في هذه الورقة دائرة ، سأجعل نصف قطرها عشرة سنتيمترات ، وسأقسم محيطها إلى عشرة أقسام وسأجعل في كل قسم منها وتراً ، وسأجعل كل وتر من هذه الأوتار قاعدة لمثلث رأسه مركز الدائرة ، ثم سأرسم في كل مثلث دائرة بمس محيطها أضلاعه الثلاث ثم سأجعل كل نقطة من نقط التماس هذه رأساً لزاوية من زوايا مثلث آخر سأرسمه داخل كل دائرة من هذه الدوائر الصغار ... خذي ... ابدئي ... وهأنذا سأبدأ معك ولنتحدث ...

— ما شاء الله ! وإن أكون عاقلة حتى أخيط لك الثوب ، ولن تكون أنت عاقلاً حتى ترسم أنت بيت جحا هذا الذي وصفته ...

— نعم ... مثلما كان يفعل الكردينال دي ريشليه ...

— رحمه الله ... هو أيضاً كان يخيط الأثواب ويرسم المثلثات والدوائر ...

— بل كان يجمع على مكتبه جيشاً من القطط لا يفتأ يحادثهن في المشكلات التي تعرض له ويسألهن حلها ويتملقهن استجداء لحلول معضلاته ومشكلاته من عندهن ، فهو يمسح هذه ويداهن تلك ، ويهز بأصابعه شوارب ذاك ، ويهرش بأظافره رأس هذا ... ولا يزال هكذا حتى ينفلق عقله أو ينبلج ، فينكشف له عقله ويرى الحكمة ... إنه كان يشغل نفسه بعمليتين عقليتين : أولاهما المعضلة التي يروم حلها ، والثانية مناوشة القطط ، وهو لم يكن يفعل هذا إلا لكي ينتفض عقله على نفسه ثم ينطبق مرة أخرى فإذا به في هذه الانتفاضة قد ومضت فيه شرارة من نوره هو ، هي ما كان يبحث عنه ليسير على هديه ... ألم ترى مطلقاً أناساً يتشاغلون في أشد مواقف التفكير حرجاً برسم الخطوط ، أو بضرب الأرض ، أو بفك الأزرار وإعادتها ثم فكها وإعادتها أو بحك جباههم أو بأي مشغلة يتشاغلون بها أثناء ما هم يفكرون فيما يحرجهم ؟ ... كل هؤلاء مثل الكردينال دي ريشليه ، فهلا تحبين أنت أن تكوني مثله ؟ ...

— ولكن الكردينال كان رجلاً هرماً لا أظنني كنت أحبه إذا رأيته ... أفلا تعرف مثلاً آخر أرشق من الكردينال دي ريشليه ...

— فلتكوني مثل جاري كوبر ... ألم تشاهديه في « مستر ديدز الشاذ » ؟

— شاهدته . واتهموه بأنه « استفجلمينا »

— فأثبت لهم أن كل الناس « استنجلينا » خذى الثوب خيطيه لمل جارى كوبر يراك فيعجب بك فيكون يوم سعدك ...

— وأين أنا منه ، وهو فى هوليود وأنا هنا فى القاهرة ...

هات الثوب هات وأمرى لله ، وابدأ أنت فى الرسم كما تشاء ، وقل ماتريد ...

— وهو كذلك ... ولكن فى أى شىء كنا نريد أن نتحدث ... لقد نسيت ...

— أظنك كنت تريد أن تعالج حب أخى لابنة الجيران بأن تكويه فوق قلبه بمسمار محمى فى النار ...

— صحيح ، وكنت أنت تنكرين هذا ، وكان إنكارك يعتمد على اعتراض قوى وهو أن الحب عاطفة وليس مرضاً بدنياً حتى يعالج علاجاً بدنياً صرفاً ... أليس كذلك ؟

— بلى ...

— أما كنت تستطيعين أن تقولى شيئاً غير « بلى » هذه فإنى لا أحبها ... على أى حال هى مسألة ذوق ، وعلاجها هى أيضاً مسمار محمى فى النار تنخسين به لسانك فلا تعودين إلى النطق بها وبأمثالها

— ما أحد لسانه فى حاجة إلى الكى غيرك ...

— إذن فقد آمنت بالنظرية ؟ !

— لا يا سيدى ... سحبتها ...

— حسن ... اسمعى ... ألا ترينه معقولاً أن تكون كل علة بدنية ظاهرة لعلة نفسية ... ثم ألا ترين أنه إذا كان الأمر كذلك فإنه يكون فيه توكيد لصلة البدن بالنفس

— ليس لى شأن بهذا التوكيد ، وإنما أريد منك ولو بعض الأمثلة التى تستطيع أن تتخذها عوناً لك على إثبات ما تقول ...

— لا بأس ... من تظنينه تصيبه التخمة إلا من أصابه الجشع والدناءة ؟ ومن تظنينه يصاب بالمرض الخبيث إلا الذى خبثت نفسه وانقاد لخبثها ؟ ومن تظنينه يصاب بالعرج إلا المشاء فى الضلال وفى الظلمة ؟ لست أريد أن أمضى معك إلى أكثر من هذا إلا أن أقول لك إن هذا الحكم يسمح لكثير من الأفراد والحوادث أن يشذوا عنه. ولكن هذا لا يعنينا ، فشذوذ الحوادث والأفراد يحتاج إلى تأمل خاص فى كل فرد وفى كل حادثة على أن يكون هذا الدرس بعد اليأس من انطباق القاعدة العامة ...

— طيب ، وبعد هذا ؟

— ما دمنا قد اتفقنا على هذا فقد سهل الأمر . والعرب ، وأهل الصعيد — وهم منهم — عرفوا الكى داء مكنه فى أعصاب الإنسان أين هو ، وهم يكوون هذا المكمن بالنار فتطهر الأعصاب من رذيلتها وضعفها ، ويزول المرض ، وهم بهذا قد فتحوا لنا الطريق كما قلت لك ، وعلى علماء النفس وأطباء هذه الأيام أن يتابعوا السير فى هذا الطريق ، وعلى الخصوص بعد أن قال قائل منهم إن مخ الإنسان ينقسم إلى مراكز عقلية ، لكل مركز منها عمل خاص ، فهذا للتذكر ، وهذا للحساب ، وهذا للاستنباط ، وهكذا ، ولست أدرى لماذا لا يفكرون حين يصيب المرض مركزاً من هذه المراكز فى أن يكووه ليطهروه وينقذوه ، وليس ضرورياً فى أن يكون الكى بالنار ، فعندهم من وسائل الكى ما هو أشفق من النار وأرحم ، وإن كانت النار أبلغ منه وأفعل ، ثم مالنا نفرض أن كل مراكز العقل مجتمعة فى المخ ، ولماذا لا يكون بعضها فى أعصاب أخرى غير المخ تلتف فيها الروح بالجسم أو تلامسها كما يلامس محيط هذه الدائرة زوايا هذا المثلث فى هذه النقط الثلاث .. فإذا جاز أن يكون هذا ، فلماذا لا يكون فى القلب مركز الحب وها هو ذا أخوك يقول لك إن قلبه يوجعه وجعاً مادياً حقاً ... اخسيه بمسمار ، أو إذا شئت أن تترأفى به فاحمى له « دبوساً » ...

— يا شيطان أخاف عليه أن يموت ...

— لن يموت ، فمهر الشقى بقى ، وإنما سيحدث بإذن الله أن يخرج أذى الحب من ثقب المسمار أو الدبوس ، آهات ، وشعراً ، أو غناء ندباً وبكاء ، ثم ينتهى الأمر ويبرأ أخوك من الحب ، ولى بعد ذلك الحلاوة ...

— هى هذه الحلاوة التى راح عقلك فيها ...

عزيز أحمد فهمى

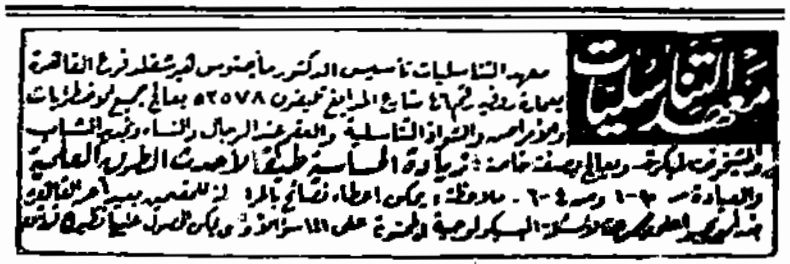

(سجل تجارى ٥٢٢٧)